الدلالة التركيبية في سورة الفتح

د. حمدي صلاح الهدهد

كلية اللغة العربية بالقاهرة-جامعة الأزهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة-بالمدينة المنورة

الدلالة التركيبية في سورة الفتح

د. حمدي صلاح الهدهد

كلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة –بالمدينة المنورة

ملخص البحث:

تأتي هذه الدراسة في مضمار دراسات عديدة تحاول الإسهام في فهم النص القرآني، وهي تركز على الدلالة التركيبية في سورة الفتح، محاولة الكشف عن بعض الدلالات التي تعكسها تراكيب السورة الكريمة. وتناول الدلالة النحوية في السورة الكريمة يقوم على محورين: الأول: من دلالة الجملة في السورة الكريمة. الثاني: من مظاهر الترابط الدلالي في السورة الكريمة. ويقوم البحث على المنهج الوصفي التحليلي ينطلق من إحصاء الأنماط التركيبية في السورة، وتحليل النتائج التي عكسها الإحصاء في ضوء مقصد السورة العام وسياقاتها المتنوعة، مع محاولة الاستئناس بما أدلى به علماء التأويل في فقه دلالة تراكيب السورة الكريمة. ويسبق الكشف عن الدلالة التركيبية في السورة الكريمة مدخل يتناول أطراً عامة للسورة الكريمة موضوع الدراسة.

The Structural Dimension of Al-Fath Sura

Dr. Hamdy Salah Alhodhod

Abstract

This is one of the studies that tries to contribute to the understanding the Qur'anic text, and it concentrates on the structural dimension in Al-Fath Sura; in an attempt to figure out some dimensions that the Sura reflects. Investigating the syntactic dimension is built on two axes: the first stems from the sentence dimension in the Sura, and the second from features of its dimensional correlation. This research paper uses the descriptive - analytical approach, which enumerates the structural patterns in the Sura, analyzing the results of the enumeration, in light of the general purpose of the Sura and its various contexts, guided by what scholars of interpretation have said in the explanation of structural dimension of the Sura. Prior to the search of the structural dimensions of the Sura, there is an entry that conducts general frameworks of the Sura under discussion.

تقديـم

- الحمد لله الفتاح العليم، الممتن على نبيه ومصطفاه بالفتح المبين، المظهرينه على الدين كله، الناصر أولياءه المؤمنين، والصلاة والسلام على البشير النذير السراج المنير، محمد –صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين –.

- تأتي هذه الدراسة في مصاف دراسات عديدة تحاول الإسهام في فهم النص القرآني، وهي تركز على الدلالة التركيبية في سورة الفتح، محاولة الكشف عن بعض الدلالات التي تعكسها تراكيب السورة الكريمة.

- فابن جني عرف الإعراب بقوله: ((الإعراب هو: الإبانة عن المعاني بالألفاظ.))(١) فالإعراب وسيلة أساسية من وسائل تحقيق المعنى، وقد أتبع ابن جني هذا التعريف بالتدليل على ضبطه، فقال: ((ألا ترى أنك إذا سمعت (أكرم سعيد أباه) و (شكرسعيدا أبوه) علمت بنصب أحدهما ورفع الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه.))(٢) وقد بين أن هناك ملامح نحوية بديلة حال تعذر ظهور الإعراب، منها: ملمح الترتيب، وهذا جلي من قوله: ((فإن قلت فقد تقول: ضرب يحيى بشرى، فلا تجد إعرابا فاصلا وكذلك نحوه، قيل: إذا اتفق ما هذه سبيله ممايخفى في اللفظ حاله، ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيان الإعراب.))(٣) ومن الملامح النحوية البديلة للإعراب ما يمكن أن نطلق عليه ملمح القرينة، وهذه القرينة متنوعة، منها القرينة العقلية نحو (أكل كمثرى يحيى) فإن القرينة قائمة على أن المفعول (كمثرى) والفاعل (يحيى) لكون الكمثرى مما يؤكل، ويدخل في هذا النوع من القرينة ما قاله ابن جني: ((وكذلك لو أومأت إلى رجل وفرس فقلت: كلم هذا هذا فلم يجبه، لجعلت الفاعل والمفعول أيهما شئت، لأن في الحال بيانا لما تعني.))(٤)

---

١) الخصائص (٣٥/١)

٢) السابق: الصفحة نفسها.

٣) السابق: الصفحة نفسها.

٤) السابق: الصفحة نفسها.

- والوحدات النحوية التركيبية يراد بها: ((كل ما دل على معنى يوصف به التركيب أو الجملة بأسرها.))(١)

- ولعل قول عبد القاهر الجرجاني: ((الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه آخر من التركيب والترتيب))(٢) دليل على إدراك أسلافنا لأهمية الدلالة التركيبية؛ ومن ثم فقد أقام نظرية النظم على علم النحو حيث قال: ((وإذ قد عرفت أن مدار النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها.....))(٣) وقال أحد المحدثين: ((النحو كما قدمه علماؤنا علم نصي؛ لأنه يتعامل مع التراكيب، ولا يمكن فهم تركيب إلا من خلال بنيته النحوية؛ فبالنحو تكشف حجب المعاني.))(٤)

- وتناول الدلالة النحوية في السورة الكريمة يقوم على محورين: الأول: من دلالة الجملة في السورة الكريمة. الثاني: من مظاهر الترابط الدلالي في السورة الكريمة.

- وسيقوم البحث على المنهج الوصفي التحليلي ينطلق من إحصاء الأنماط التركيبية في السورة، وتحليل النتائج التي عكسها الإحصاء في ضوء مقصد السورة العام وسياقاتها المتنوعة، مع محاولة الاستئناس بما أدلى به علماء التأويل في فقه دلالة تراكيب السورة الكريمة.

- ويسبق الكشف عن الدلالة التركيبية في السورة الكريمة –مدخل يتناول أطرا عامة للسورة الكريمة موضوع الدراسة.

---

١) دلالة السياق (٢٢٨،٢٢٩) د. البركاوي

٢) أسرار البلاغة (٣)

٣) دلائل الإعجاز (٦٧ وما بعدها)

٤) منهج في التحليل النصي للقصيدة (١١٥) د. محمد حماسة

مدخل

بين يدي سورة الفتح

اسم السورة: رأى بعض المفسرين أن سورة (الفتح) سميت بهذا الاسم؛ لأن الله افتتحها ببشرى النبي –صلى الله عليه وسلم – بالفتح والنصر.(١)

عدد آياتها: آياتها تسع وعشرون آية بالإجماع. (٢)

سبب نزولها: جمهرة علماء التفسير على أن السورة مدنية أو نزلت بين مكة والمدينة، فهي مدنية بالإجماع على حد قول القرطبي.(٣) وقد أورد التوحيدي سبب نزول السورة الكريمة على النحو الآتي: ((..... عن قتادة عن أنس قال: أنزلت هذه الآية على النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ عند رجوعه من الحديبية نزلت وأصحابه مخالطون الحزن، وقد حيل بينهم وبين نسكهم ونحروا الهدي بالحديبية، فلما أنزلت هذه الآية قال لأصحابه: لقد أنزلت علي آية خير من الدنيا جميعها فلما تلاها النبي صلى الله عليه وسلم قال رجل من القوم: هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بين الله ما يفعل بك فماذا يفعل بنا فأنزل الله تعالى ﴿لِّيُدخِلَ المُؤمِنينَ وَالمُؤمِناتِ جَنّاتٍ﴾ الآية....)) ٤

المقاصد العامة للسورة الكريمة:

- تتجلى المقاصد العامة لسورة الفتح في النقاط الآتية:

---

١) ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٢٥/١٤١) ط.١ الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٤م، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٢٦/١٤٢) لوهبة بن مصطفى الرحيلي، ط. دار الفكر المعاصر بدمشق –الثانية عام ١٤١٨هـ.

٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٥٩) للقرطبي. ط. دار عالم الكتب بالسعودية، تحقيق/ هشام البخاري ٢٠٠٣م. روح المعاني (٢٥/٨٤) للألوسي. ط. دار إحياء التراث العربي ببيروت.

٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٥٩)

٤) أسباب النزول (ص ٢٨٤)

(١) بشارة النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفتح، والمغفرة المطلقة، وتمام النعمة، والهداية، والنصر العزيز، وهذا ما يدل على كرامة النبي عند ربه، والوعد له بالنصر المتعاقب.

(٢) الامتنان على المسلمين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق، وتبشيرهم بالمغفرة والثواب، وعون السماء بجنود الله، وما أعده الله لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من الغضب واللعنة والعذاب الأليم.

(٣) التنويه ببيعة أهل الإيمان رسول الله، واعتبارها بيعة لله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق.

(٤) الكشف عن فضيحة الذين تخلفوا عن الحديبية من الأعراب، ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية، وبيان الأعذار المستحقة للتخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله.

(٥) وعد النبي بفتح آخر، وهو فتح خيبر، يعقبه فتح أعظم منه، وهو فتح مكة المكرمة، والتنكيل بأعداء المسلمين الذين صدوا أهل الإيمان عن المسجد الحرام والهَدي.

(٦) الإشارة إلى الصفات التي تتميز بها أمة محمد – صلى الله عليه وسلم –وبيان وصفهم في الكتب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل).(١)

: الجو العام في السورة الكريمة

- إن الجو العام للسورة يحكي حال ثلاث فئات متصارعة: فئة تنافح عن الحق وتذب عن حياضه، وهي الفئة المؤمنة التي خرجت مع النبي – صلى الله عليه وسلم –لأداء العمرة. وأخرى تكابح في تعنت غاشم، واستعلاء ظالم، وهي الفئة الطاغية والشرنمة

١) اعتمدت في صياغة هذه المقاصد على تفسير: التحرير والتنوير (٢٦|١٤٣،١٤٢).

الباغية، إلا أن إرادة الله شاءت ألا يصل أهل الحق إلى المراد، وعزب عنهم الارتياد؛ فخالطهم حزن حزين، وأسى دفين، لا لمكسب دنيوي فاتهم وشمس عنهم، ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون، إلا أن عناية الله بدلت الحزن فرحا، والأسى نجحا وملأت القلوب سكينة، والنفوس طمأنينة؛ فزفت لهم البشريات، وسيقت لأعدائهم المخزيات، ثم تأتي فئة ثالثة مذبذبة، وهي فئة الأعراب المتخلفين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الموسومين بسوء الظن والخداع؛ فكشفت السورة عنهم القناع؛ فالسورة في جوها العام وعد ووعيد وبشارة ونذارة.

* * *

المحور الأول

من دلالة الجملة في السورة الكريمة

- السورة الكريمة موضوع الدراسة اشتملت على أكثر من (١٠٠) مائة جملة، منها (٢١) إحدى وعشرون جملة اسمية، وأكثر من (٨٠) ثمانين جملة فعلية.

- وغلبة الجمل الفعلية على الاسمية تتناغم مع الأسلوب السردي للأحداث التي قامت عليه السورة الكريمة.

- ويمكننا تناول دلالة كل نمط من أنماط الجملة على حدة.

- أولا: دلالة الجمل الاسمية في السورة الكريمة:

- بداية لابد من التنويه إلى أن السياقات التي وردت فيها الجمل الاسميةسياقات اقتضت استعمالها بما لها من دلالة على الثبوت والدوام، فعلى سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾وغير ذلك من المواضع(٢١) في السورة فالفتح مصدره ثابت ودائم وإنزال السكينة لا يكون إلا من الله ولاينزلهاإلاعلى أوليائه، وجنود السماوات والأرض لله وحده، فكلها أمور ثابتة دائمة ناسبها التعبير بالجملة الاسمية.

- كما أنه تلاحظ أن غالبية هذه الجمل قد ورد في سياق الوعد والبشارة والامتنان لرسول الله والمؤمنين، فلم ترد الجمل الاسمية في سياق الوعيد إلا في جملتين وهو ما يعكس ثبوت موعودات الله لرسوله وللمؤمنين وديمومة ذلك لهم.

- وبتأمل الجملتين الاسميتين اللتين وردتا في سياق الوعيد وهما: قوله: ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ وقوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا ﴾ نلاحظ أن كل جملة تعكس أمرا ثابتا ودائما، فالأولى تعكس أن دائرة السوء ثابتة وملازمة ودائمة على أهل الكفر والنفاق، ولعل تقديم المسند (عليهم) الذي يفيد الحصر والقصر يؤكد هذه اللطيفة، وهناك من شواهد القرآن ما يؤكد ذلك، ولعل منها

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال:٣٦]

والجملة مفهومها أن دائرة السوء لا تصيب أهل الإيمان في أي زمان.

- والجملة الثانية أيضا تعكس دلالة ثابتة دائمة وهي أن أهل الكفر يتهجون صد أهل الإيمان عن القيام بشعائر دينهم وحربهم في كل زمان واستهلال الجملة بالضمير (هم) له دلالة أفصح عنها ابن عاشور حين قال: ((وضمير الغيبة المفتتح به عائد إلى الذين كفروا من قوله: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر...))(١)

- وقد تنوعت الجمل الاسمية في السورة الكريمة على النحو الآتي:

(١) جمل اسمية مثبتة: وقد بلغت (١٩) تسع عشرة جملة.

(٢) جمل اسمية منفية ولم ترد إلا مرتين في قوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فالجملتان المنفيتان بـ (لا) اسميتان، وقد كشف الألوسي عن دلالة النفي قائلا: ((وليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو بل قالوا: إن أجرهم مضاعف في الغزو، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى –رضي الله تعالى عنه– وحضر في بعض حروب القادسية وكان يمسك الراية...))(٢) وهو ما تؤكده دلالة النفي بـ (لا) العاملة عمل (ليس) إذ إن النفي بها ليس نفيا عاما وإنما هو نفي خاص، وهو الفارق بين النفي بـ (لا) النافية للجنس، و (لا) العاملة عمل (ليس) فالنفي بالأولى عام وبالثانية خاص.

- ويمكن التركيز على بعض الدلالات الفرعية للجمل الاسمية الواردة في السورة الكريمة.

---

١) التحرير والتنوير(٢٥/٨٧)

٢) روح المعاني(٢٥/١٠٥)

- دلالة التوكيد في الجمل الاسمية:

- جاءت الجملة الاسمية مؤكدة بالحرف الناسخ (إن) في أربعة مواضع، وهي على ترتيبها في الورود:

- قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾: وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ وقوله: ﴿ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾

- أما عن التوكيد في الجملة الأولى، فقد اختلف المفسرون في الغرض من توكيد الجملة، وقد عرض الألوسي عددا من هذه الآراء، فقال: ((والتأكيد بـ (إن) للاعتناء لالرد الإنكار. وقيل: لأن الحكم لعظم شأنه مظنة للإنكار. وقيل: لأن بعض السامعين منكر كون ما وقع فتحا...))(١) في حين برر ابن عاشور هذا التوكيد بقوله: ((افتتاح الكلام بحرف (إن) ناشئ على ما أحل للمسلمين من الكآبة على أن أجيب المشركون إلى سؤالهم الهد نة ك ما سيأتي من حديث ع مر بن الخ طاب..... فالتأك يد مصروف للسامعين على طريقة التعريض....))(٢) ويمكن أن تجتمع هذه المبررات جميعها فمما لا ريب فيه أن التردد كان واضحا على عدد غير قليل من المسلمين الذين صحبوا رسول الله في الحديبية، وعلى ذلك يكون التوكيد هنا طلبيا، والتوكيد أيضا للاعتناء مخاطبة للواثقين، أمثال النبي وأبي بكر وغيرهما.

- بينما كان التوكيد في الموضعين (الثاني والثالث) للاهتمام.(٣) و في الموضع الرابع للتهديد والوعيد.

- دلالة التضاد في الجمل الاسمية:

---

١) روح المعاني (٢٥/٨٥)

٢) التحرير والتنوير (٢٥/١٤٣)

٣) السابق (٢٥/١٥٥،١٥٧)

- وقد ظهر هذا التضاد أو هذه المقابلة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقد كشف ابن عاشور عن هذه الدلالة بقوله: ((وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين: الشدة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالحيلة وعدم الرؤية.))(١)

- ثانيا: دلالة الجملة الفعلية في السورة الكريمة:

- تنوعت الجمل الفعلية في السورة الكريمة بأكثر من اعتبار، فباعتبار الخبر والإنشاء نلاحظ أن عدد الجمل الإنشائية وردت(٥) خمس مرات وكلها مبتدأة بفعل الأمر، في حين وردت الجمل الفعلية الخبرية في أكثر من (٧٥) خمس وسبعين مرة.

- ولعل غلبة الجمل الخبرية تتناغم مع أسلوب سرد الأحداث والأخبار الذي بنيت عليه السورة الكريمة.

- ويمكن عرض تنوع دلالة الجمل الفعلية في السورة الكريمة على النحو الآتي:

- دلالة الطلب:

- من اللافت للنظر أن الجمل الطلبية لم ترد إلا في سياق الحديث عن موقف الأعراب، هي قوله: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وقوله: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ وقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وقوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ولعل مجيئها هنا مناسب لطبيعة الحوار الذي دار بين رسول الله والأعراب، ولا يخفى أن ثمة تباينا بين هذه الجمل الطلبية، فالجملتان (الأولى والثالثة) الصادرتان عن الأعراب تعكسان انكسارا وذلة، بينما الأمر الصادر عن الله في الثلاثة المتبقية أمر على حقيقته.

- دلالة التعليل:

---

١) السابق (٢٥/٢٠٥)

- وردت الجمل الفعلية التعليلية في السورة الكريمة (١٧) سبع عشرة مرة، وهو عدد غير قليل، ومن اللافت أن (١٦) ست عشرة جملة وردت في سياق الوعد والبشارة، ولم يرد إلا موضع واحد في سياق الوعيد وهو قوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ عطف على قوله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ وربما يكون شيوع التعليل في سياق الوعد راجعا إلى أن التعليل وسيلة تحقق اليقين بموعود الله ووسيلة لجذب أولي الألباب إلى الحرص على الإقبال على عطاءات الله بمرادات الله.

- وقد لوحظ اختلاف في وجهات نظر أهل التأويل في بعض هذه الجمل وسيتم الاقتصار على ما ثار جدل حوله بشيء من التحليل.

- الموضع الأول: اللام في قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

وقد اختلف العلماء في كنه اللام في (ليغفر) فقد نقل ابن الأنباري عن السجستاني بأن اللام هنا لام القسم، فقال: ((قال السجستاني: هي لام القسم، وهذا خطأ، لأن لام القسم لا تكسر، أي: أن لام كي تكون مكسورة أبدا...))(١) بينما رأى جمهرة العلماء – إن لم يكن جميعهم – أن اللام هنا هي لام كي، وهذا يُدخلنا في مناقشة هذا السؤال: هل اللام تفيد معنى التعليل والسببية، وهي دلالة ملازمة للام كي.؟ وهل المغفرة علة وسبب للفتح؟

- فقد رأى ابن عطية أن اللام هنا لام كي ولكن لها معنى غير معناها الذي وضعت له، فقال: ((ليغفر، هي لام كي، لكنها تخالفها في المعنى، والمراد هنا أن الله تعالى فتح لك لكي يجعل لك ذلك أمارة وعلامة لغفرانه لك، فكأنها لام صيرورة....))(٢)وقد بنى الطبري علة المغفرة على سورة النصر، فقوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره)إذ إن

---

١) إيضاح الوقف والابتداء (٧٠٠/٢) والقطع والائتناف (٤٠٢) والجامع لأحكام القرآن (٢٦٢/١٥)

٢) المحرر الوجيز (٦٦٥/٧)

الله أمره أن يسبح بحمد ربه وأن يستغفره وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من الله لنبيه عن جزائه له على شكره له.(١) وقد ضعف ابن عطية بناء العلة في لام (ليغفر) على ما جاء في سورة النصر قائلا: ((وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن السورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبي – صلى الله عليه وسلم – ناعية له نفسه حسب ما قال ابن عباس – رضي الله عنه –..... والآخر: أن تخصيص النبي بالتشريف كان يذهب، لأن كل واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الذي قاله الطبري))(٢) وما قاله الزمخشري في بيان العلة التي تؤديها اللام صار شبه إجماع بين كثير من أهل التأويل، إذ يقول: ((فإن قلت: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، كأنه قال: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوك، لنجمع لك بين عز الدارين، وأغراض العاجل والآجل...))(٣) وهذا ما يؤكده العطف بالواو التي تدل على المشاركة.

- الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ اختلف أهل التأويل في متعلق اللام، وقد ذكر الرازي نصا مطولا أورد فيه هذه الآراء، يمكن إيجازه على النحو الآتي:

(١) إما أن يكون التعلق بفعل مذكور سلفا، وهناك أكثر من فعل تتغير دلالة التعليل وفقا له.

---

١) ينظر: جامع البيان (١١/٤٣، ٤٢)

٢) المحرر الوجيز (٧/٦٦٦)

٣) الكشاف (٣/٢٥٢) وينظر: مفاتيح الغيب (٢٧/٧٨) والجامع للقرطبي (١٥/٢٦٢)

(أ) أن يكون متعلقا بـ (ليزدادوا) وعلى هذا يكون المعنى: كأنه تعالى أنزل السكينة عليهم ليزدادوا إيمانا بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات.وقد ترتب على هذا الاحتمال تساؤل طرحه الرازي قائلا: ((فإن قيل: فقوله(يعذب)عطف على قوله: (ليدخل) وازدياد إيمانهم لا يصلح سببا لتعذيبهم؟ نقول: ذلك على وجهين، أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصودا للمؤمنين، كأنه تعالى يقول: بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنات ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين. الثاني: تقديره: ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال: فعلته لأجرب به العدو والصديق، أي: لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذلك ليزداد المؤمن إيمانا فيدخله الجنة،ويزداد الكافر كفرا فيعذبه به..))[1] وعلى هذا تكون دلالة التعذيب في (يعذب) على الوجه الأول دلالة عاجلة في الدنيا، وعلى الثاني تكون دلالة التعذيب آجلة أي: يوم القيامة.

(ب) أن (ليدخل) متعلق بـ (وينصرك الله) وعلى هذا يكون المعنى: وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

(٢) أن يكون متعلقا بـ (ليغفر) شرط جعل الذنب على ذنب المؤمن، ويكون المعنى: ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، وإما أن يكون التعلق بلفظ غير صريح، وهو يحتمل وجوها ثلاثة:

(أ) أن يكون متعلقا بـ (حكيما) ويكون المعنى على ذلك: الله حكيم فعل ما فعل ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

(ب) أن يكون متعلقا بقوله: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ ويكون المعنى: ويتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.

---

١) مفاتيح الغيب (٨٢/٢٧)

(ت) أن يكون متعلقا بقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ ووجهه: أنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي –صلى الله عليه وسلم –هنيئا لك إن الله غفر لك، فماذا لنا؟ فنزلت هذه الآية، ويكون المعنى على ذلك: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات.

- وقد رأى الطبري هذا الرأي، استنادا إلى السياق الخارجي المتمثل في سبب النزول قائلا: ((وقد تقدم ذكر الرواية أن هذه الآية نزلت لما قال المؤمنون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –أو تلا عليهم قول الله–عز وجل–: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا لك يا رسول فماذا لنا؟ تبيينا من الله لهم ما هو فاعل بهم.. فأعلم الله سبحانه نبيه –عليه السلام– قوله: ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ على قوله: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ بتأويل تكرير الكلام: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله، إنا فتحنا لك ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، ولذلك لم تدخل الواو التي تدخل في الكلام للعطف، فلم يقل: وليدخل....))(١) وبهذا يكون الطبري قد وظف السياقين الداخلي والخارجي في إثبات وجهة نظره.

(٣) وإما أن يكون التعلق بالقرينة الحالية لا قرينة مقالية، ويكون الأمر بالقتال هو القرينة الحالية، لأن ذكر الفتح والنصر من مقتضياته القتال، ويكون المعنى على ذلك: إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات، أو عرف من قرينة الحال أن الله اختار أهل الإيمان ليدخلهم الجنة.(٢)

---

١) جامع البيان (٤٦/١١)

٢) ينظر: تفصيل هذه الآراء (مفاتيح الغيب ٨١/٢٧ وما بعدها)

- وكل هذه الوجوه مقبولة لا تعارض بينها ولكن ما ينبغي التأكيد عليه أن كل وجه له أثر في توجيه المعنى، وإن كان القول القائل بتعلق (ليدخل) بـ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ أقرب؛ لاعتماده على السياق الداخلي والخارجي المتمثل في سبب النزول.

- ع لى أن ه نا لطي فة نوه إلي ها ا لرازي قائلا: ((قال هه نا و في بـ عض المواضع(المؤمنين والمؤمنات) فما الحكمة فيه؟ نقول: في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحا....فلما كان قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم؛ لأن إدخال المؤمنين كان للقتال، والمرأة لا تقاتل؛ فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن، وكذلك في المنافقات والمشركات....))(١)

- الموضع الثالث: اللام في قوله تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٩﴾ ﴾ حيث جوز بعض أهل التأويل أن تكون اللام للتعليل، أو تكون لام الأمر؛ قال ابن عاشور: ((فيجوز أن تكون اللام في (لِّتُؤْمِنُوا) لام كي مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل (أرسلناك)..... ويجوز أن يكون الكلام قد انتهى عند (نذيرا) وتكون جملة (لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ) جملة معترضة، ويكون اللام في قوله: (لِّتُؤْمِنُوا) لام الأمر، وتكون الجملة استئنافا للأمر...))(٢) وعلى هذا فالجملة إما أن تكون موصولة بما قبلها وذلك على كون اللام تعليلية، وإما أن تكون استئنافية على جعل اللام للأمر، وبالرجوع إلى كتب الوقف والابتداء نجد إجماعا على أن الوقف على (نذيرا) غير تام، يقول النحاس:

---

١) مفاتيح الغيب (٨٢/٢٧)

٢) التحرير والتنوير (١٥٥/٢٥ وما بعدها)

((﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ ليس بتمام، لأن بعده لام كي ووافق أبو حاتم الجماعة في هذا....))(١)

- دلالة الشرط:

- تعددت الجمل الشرطية في السورة الكريمة، فقد وصلت إلى ثماني جمل، ونسبة الورود كانت شبه مناصفة بين سياقي الوعد والوعيد، وهو ما يمكن بيانه على النحو الآتي:

- الجمل الشرطية في سياق الوعد:

- قوله:﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ وقوله: ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴾ وقو له: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وقو له: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ وقو له: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾

- الجمل الشرطية في سياق الوعيد:

- قو له: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ وقو له: ﴿ وَمَن يُؤۡمِن.لَّمۡ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ وقو له:﴿ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- فأسلوب الشرط من الأساليب الخاصة بالأفعال، وهذا يعني أنه يقوم بالأساس على الحدث، كما أن الشرط يقتضي فعلا وجوابا، ففعل الشرط بمثابة السبب وجوابه بمثابة المسبب، ومن ثم نلاحظ انه في سياق الوعد قدم أسبابا ومسببات؛ فالوفاء بالعهد ثمرته الأجر العظيم، والطاعة لله ورسوله ثمرتها الأجر الحسن والجنة، وقتال الكفار ثمرته توليهم الأدبار، وعدم دخول المؤمنين مكة عام الحديبية ثمرته تجنيب

١) القطع والائتناف (٤٨٧) وينظر: إيضاح الوقف والابتداء (٩٠٠/٢) والمكتفى في الوقف والابتدا (٥٢٨)

المؤمنين المعرة. ونلاحظ أن هناك وعودا عاجلة وأخرى آجلة، وهو ما يعكس تجدد نفحات الله وحدوثها واستمرارها.

- وكذلك في سياق الوعيد نكث العهد ويلاته على صاحبه، وعدم الإيمان بالله ورسوله عاقبته العذاب الأليم، والتزيل عاقبته العذاب الأليم.

- فأسلوب الشرط أسلوب صفقات، فمن قدم خيرا جني خيرا ومن قدم سوءا جني سوءا، والجني الأول فيه فضل وسعة، والثاني فيه عدل وقسطاس.

- دلالة الإثبات:

- وتتحقق هذه الدلالة من خلال الجمل الفعلية غير المنفية، وقد لوحظ أن الغالب على الجمل الفعلية في السورة الكريمة الجمل المثبتة، وقد تنوعت هذه الجمل في شكلها التركيبي على النحو الآتي:

(١) جمل منسوخة بفعل ناسخ:

- وقد بلغت (١٥) خمس عشرة جملة، منها (١٢) اثنتا عشرة جملة بالفعل (كان) بصيغة الماضي،(١) واثنتان بالفعل (ظن) وكلتاهما بصيغة الماضي.(٢)

- وهذه الجمل المنسوخة منها (٩) تسع جمل في سياق حديث الله عن نفسه وقد جاءت كلها في تذييل الآيات، ومن ثم فإن الفعل (كان) مجرد من الزمن حالة إسناده إلى الله تعالى.

- والجمل المنسوخة هي في الأصل جمل اسمية، وكما نعلم أن النحويين اختلفوا في كون هذه الأفعال الناسخة عملت في المبتدأ والخبر أم لا(٣) وعلى ضوء ذلك نستطيع القول بأن الجمل المنسوخة التسع التي جاءت في سياق حديث الله عن نفسه

---

١) هناك جملة تعليلية منسوخة (ولتكون آية للمؤمنين) سبقت معالجتها في الدلالة التعليلية.

٢) وهناك جملة منسوخة بـ(ليس) سيتم تناولها في دلالة النفي، وهي: (ليس على الأعمى حرج)

٣) فالبصريون يرون أنها ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، والكوفيون يرون أنه لا عمل لها، وإن المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر نصب على الحالية، تشبيها بالفعل القاصر. (ينظر: عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ١/٢٠٩)

مزدوجة الدلالة، بمعنى: أنها تجمع بين دلالتي الجملة الاسمية والجملة الفعلية، فمثلا جملة: وَكَانَ﴿ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ دلت على ثبوت ذلك لله تعالى ودوامه، وكذلك تجدده وحدوثه في كل الأوقات والأزمان حسب الأحداث والمقتضيات.

- أما دلالة الجمل المنسوخة في غير ذلك السياق، فأعتقد أن دلالة الجملة الاسمية قد ذهبت واكتسبت الجملة بدخول الناسخ دلالة التجدد والحدوث، ومن المواضع التي كانت مثار جدل بين أهل التأويل في الدلالة جملة ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ فقد حكى أبو حيان هذا الاختلاف قائلا: ((.. واحتمل وكنتم، أي يكون المعنى: وصرتم بذلك الظن، وأن يكون: وكنتم على بابها، أي: وكنتم في الأصل قوما فاسدين، أي: الهلاك سابق لكم على ذلك الظن.))(١) وهذا الاختلاف لم يؤثر على الدلالة الزمنية للفعل، ويمكن القول بأننا لو قلنا: إن البور بمعنى: الفساد، فالأنسب أن تكون (كنتم) على أصلها، وإن قلنا: البور بمعنى: الهلاك، فالأنسب أن تكون كنتم بمعنى صرتم، ويمكن الجمع بين القولين، بأنهم فسدوا فلما فسدوا هلكوا، فالفساد مؤداه الهلاك.

- وأقحم (قوما) بين (كان) وخبرها (بورا) لإفادة أن البوار صار من مقومات قوميتهم، لشدة تلبسه بجميع أفرادهم.(٢)

- والجملتان المنسوختان بالفعل (ظن) وهما اجتمعتا في قوله: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ قد جاءتا في سياق الوعيد للأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديبية، كاشفتين عن النوايا الخبيثة التي كانت في معتقدهم الزائف، وهذا الفعل كما هو معلوم من أفعال القلوب التي تفيد الرجحان(٣)

---

١) البحر المحيط (٤٨٩/٩)

٢) التحرير والتنوير (١٦٥/٢٥) بتصرف

٣) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣٩/٢)

ولكنها في هذا السياق تفيد اليقين لا الرجحان، لأن مصدر الخبر هو الله تبارك وتعالى وأخبار الله لا تحتمل شكا ولا صدقا ولا كذبا.

(٢) جمل مصدرة بالفعل الماضي:

- وجملة هذه الجمل (٢٥) خمس وعشرون، منها (٧) سبع في سياق الوعيد والبقية في سياق الوعد.

- تأمل ما جاء من جمل ماضوية متتالية في قوله: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٦ ﴾ وهذا ابن عاشور يعقد مقارنة بين الجملة الاسمية الواردة قبل هذه الجمل المتتالية ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ في الدلالة قائلا: ((وجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها لذلك بخلاف جملة (وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ) فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم، فالتعبير بالماضي منه أظهر.))(١)

- وإذا ما تأملنا عددا من الجمل التي جاءت في سياق الوعد، نلاحظ أن بعضها جاء مصدرا بـ (قد) ومن المعلوم أن (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي تفيد التحقيق والتوكيد، تأمل هذه الجمل ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وقوله: ﴿ قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ ﴾ وقوله: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ ﴾

- بتأمل الجملة الأولى التي جاءت في حدث بيعة الرضوان، نلاحظ أنها استهلت بلام القسم التي تفيد أيضا معنى التوكيد، وأتبعت بـ (قد) التي تفيد التحقيق كل ذلك من شأنه ما يجعل لهذا الحدث من الجلال ماله، ثم تأمل جملة (إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ) يقول ابن عاشور: ((إِذۡ يُبَايِعُونَكَ) ظرف متعلق بـ (رضي) وفي تعليق الظرف بفعل الرضا ما يفهم أن الرضا مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه، مع ما يعطيه

---

١) التحرير والتنوير (٢٥/١٥٤)

توقيت الرضا بالظرف المذكور من تعجيل حصول الرضا بحدثان ذلك الوقت، ومع ما في جعل الجملة المضاف إليها الظرف فعلية مضارعية من حصول الرضا قبل انقضاء الفعل بل في حال تجدده.))(١).

- بينما جاء الغرض من التوكيد في جملة ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ مختلفا، فاستهلال الجملة بلام القسم المتبوعة بـ (قد) ثم بمدلول المتعلق (بالحق) ليؤكد للمترددين والمتشككين في فتح مكة أنه واقع لا محالة ومحقق يقينا لا ريبة في ذلك، وقد نوه ابن عاشور إلى ذلك قائلا: ((وتوكيد الخبر بحرف (قد) لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا؟))(٢)

(٣) جمل مصدرة بفعل مضارع مثبت:

- وقد بلغت هذه الجمل (١٢) اثنتي عشرة جملة، منها سبع في سياق الوعيد وقد وردت جميعها في الحديث عن موقف الأعراب، والبقية في سياق الوعد وردت جميعها في الآية الأخيرة.

- ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال، والاستقبال في المضارع المثبت يتحقق من خلال سبقه بالسين أو سوف، وقالوا: إن السين تدل على المستقبل القريب، وسوف تدل على المستقبل البعيد.

- ولم يأت الفعل المضارع دالا على الاستقبال إلا في الجمل الآتية: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾ وقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾ وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَا﴾ وقوله: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾

- ونلاحظ على هذه الجمل الآتي:

---

١) السابق (٢٥/١٧٣)

٢) التحرير والتنوير (٢٥/١٨٩)

(أ) أنها وردت في سياق الحديث عن موقف الأعراب.

(ب) أنها صُدرت جميعها بالسين الدالة على المستقبل القريب.

- إن موقف الأعراب في هذا الحدث كان موقفا متخاذلا، لأنهم لم يخرجوامع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديبية؛ ظنا منهم أن رسول الله ومن خرج معه من المؤمنين لن يرجعوا، وأنهم سيلقون حتفهم على يد الكفار؛ فلماأخزاهم الله وعاد رسول الله وأصحابه كان يتحتم عليهم أن يخرجوا من هذا المأزق بعذر؛ فقرروا ركوب مطية الكذب؛ فأخبر الله نبيه بما سيتعللون به بصيغة المستقبل؛ تأييدا لحبيبه ومصطفاه، وهوما تعبر عنه الجملة الأولى، وقد تعللوا بما أخبر الله به نبيه، وتأمل هذه العلة (شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا) قال الرازي: ((قولهم (أموالنا) ولم يقولوا الأموال،وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذرا؛ لأنه لا نهاية له، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحصول من الفوات يصلح عذرا، فقالوا: (شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا) أي: ما صار مالا لنا لا مطلق الأموال.))(١)

- ثم بالمقارنة بين مقولتهم هذه وقولهم: (سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا) نلاحظ فرقين:

- الأول: ذكر الأعراب في الأولى وعدم ذكرها في الثانية. الثاني: ورود(لك)في الأولى دون الثانية.

- وقد علل ابن عاشور هذين الفرقين قائلا: ((ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة، لم يؤت معها بمجرور(لك) كما أتى به في قوله: (سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ) آنفا؛لأن هذا قول راغب صادق غير مزور لأجل الترويج على النبي –صلى الله

١)مفاتيح الغيب (٨٨/٢٧)

عليه وسلم –... واستغنى عن وصفهم بأنهم من الأعراب؛ لأن تعريف المخلفون تعريف العهد؛ أي: المخلفون المذكورون.))(١)

- ثم إذا عرجنا على الجمل الواردة في الوعد التي منها قوله: (تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا) قال الألوسي: ((والتعبير بالمضارع للاستمرار، وهو استمرار عرفي.))(٢) ويضيف ابن عاشور قائلا: ((وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك أي: تراهم كلما شئت أن تراهم ركعا سجدا، وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضا الله ورضوانه، وفي سوق هذا مساق الثناء، إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.))(٣)

- دلالة النفي:

- تنوعت الجمل الفعلية المنفية في السورة الكريمة، وقد جاء هذا التنوع تبعا لتنوع أداة النفي.

- فقد جاء النفي بـ (ليس) في موضعين، وهما: (مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ) و (لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ).

- وجاء النفي بـ (لن) في موضعين، هما: (لَّن تَتَّبِعُونَا) و (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا).

- وجاء النفي بـ (لا) النافية في ثلاثة مواضع، هي: (لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا) و (لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا) و (لَا تَخَافُونَ).

- وجاء النفي بـ (لم) في ثلاثة مواضع، هي: (لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا) و (لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ) و (مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ).

---

١) التحرير والتنوير (١٦٧/٢٥)

٢) روح المعاني (١٢٤/٢٥)

٣) التحرير والتنوير (٢٠٥/٢٥)

- والفرق بين أدوات النفي السالفة الذكر يوضحه المالقي في عدة نصوص،إذ يقول في (لم): ((اعلم أن (لم) حرف يجزم الأفعال المضارعة على اختلاف أنواع الجزم، وينفيها؛ إلا أنها تخلص معنى المضارع إلى المضي؛ لأنها جواب من قال: فعل؛ إذ هي نظيرها؛ فكأنك قلت مجاوبا فلم يفعل ما فعل؛ فهي من القرائن الصارفة الأفعال المضارعة إلى المضي، وإن كان لفظها يصلح للحال والاستقبال.....))(١) وقال في (لن): ((اعلم أن (لن) حرف ينفي الأفعال المضارعة ويخلصها للاستقبال معنى وإن كان في اللفظ باقيا على احتماله للحال أو الاستقبال؛ وإنما كان ذلك لأنها كالجواب لمن قال: سيفعل، ولا تجتمع مع ا لسين؛ لأنها مختصة بالإيجاب، ك ما أن (لن) مختصة بالنفي؛ فتناقضا.))(٢) وقال في (لا) المختصة بنفي المضارع: ((فأما القسم الداخل على الأفعال فلا تدخل عليها غالبا إلا مضارعة؛ فتخلصها للاستقبال، نحو قولك: لا يقوم زيد ولا يقوم عمرو، وكأنها جواب سيقوم أو سوف يقوم.....))(٣) أما النفي بـ (ليس) فقياسا على(ما) النافية التي تدخل على الأسماء فهي تكون نافية للحال؛ يقول المالقي: ((فالقسم الذي يدخل على المبتدأ والخبر للعرب فيها مذهبان، مذهب أهل الحجاز، ونجد أنهم يجرونها مجرى ليس؛ فيرفعون بها المبتدأ اسما لها وينصبون خبرا لها؛ فيقولون: ما زيد قائما، وذلك تشبيها لها بـ (ليس) إذ هي للنفي مثلها، وداخلة على المبتدأ والخبر مثلها، ونفي الحال....))(٤)

- من خلال هذه النصوص نستطيع القول بأننا أمام ثلاثة أنماط من أساليب النفي نمط لنفي الماضي في الجمل المنفية بـ (لم) والنمط الثاني نفي للمستقبل في الجمل المنفية بـ (لن، ولا) والنمط الثالث لنفي الحال في الجمل المنفية بـ (ليس).

---

١) رصف المباني في شرح حروف المعاني (٢٨٠)
٢) السابق (٢٨٥)
٣) السابق (٢٥٨)
٤) السابق (٣١٠)

- وقد توقف بعض أهل التأويل عند بعض هذه الجمل، فمثلا جملة: (لَّن نَتَّبِعُونَا) قال الرازي: ((...(لَّن نَتَّبِعُونَا) على صيغة النفي بدلا من من قوله: لا تتبعونا على صيغة النهي معنى لطيف، هو أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه، فجزم وقال: (لَّن نَتَّبِعُونَا) يعني: لو أذنت لكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى.))(١)

- وقال في جملة (لَا تَخَافُونَ): ((قوله تعالى: (لَا تَخَافُونَ) أيضا حال معناه: غير خائفين، وذلك حصل بقوله تعالى (آمنين) فما الفائدة في إعادتها؟ نقول: فيه بيان كمال الإيمان، وذلك بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم، فقال: تدخلون آمنين، وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام..))(٢)

- وقال ابن عاشور في جملة (لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا): ((وأفاد قوله: (لَا يَفْقَهُونَ) انتفاء الفهم عنهم لأن الفعل في سياق النفي كالنكرة في سياق النفي يعم، فلذلك استثنى بقوله: (إِلَّا قَلِيلًا) أي إلا فهما قليلا.....))(٣) وأعتقد أن النفي بـ (لا) في هذا الموضع ليس على أصله في النفي المستقبل، وإنما النفي للماضي بدلالة (كانوا) قبلها أو أن يكون النفي هنا نفيا عاما يشمل الماضي والحال والمستقبل وفقا لما ذكره ابن عاشور، وهكذا يؤثر السياق الداخلي في تغيير دلالة الأسلوب.

---

١) مفاتيح الغيب (٩١/٢٧) وينظر: إرشاد العقل السليم (١٠٨/٧) البحر المحيط (٤٨٩/٩) وروح المعاني (١٠٢/٢٥) والتحرير والتنوير (١٦٩/٢٥)

٢) مفاتيح الغيب (١٠٥)

٣) التحرير والتنوير (١٧٠/٢٥)

المحور الثاني

من مظاهر الترابط الدلالي والتركيبي في السورة الكريمة

- ويمكننا تناول هذا المحور من خلال العناصر الآتية:
- أولا: من دلالة الأدوات في السورة الكريمة.
- ثانيا: من دلالة الإحالة في السورة الكريمة.
- ثالثا: من دلالة الوصف في السورة الكريمة.
- رابعا: من دلالة التذييل في السورة الكريمة.
- خامسا: من دلالة الترتيب في السورة الكريمة.
- وتناول هذه العناصر سيكون مبنيا على منهج الانتقاء لا الاستقراء التام؛ حتى لا يطول البحث.
- أولا: من دلالة الأدوات في السورة الكريمة:
- وقد تنوعت الأدوات في السورة الكريمة ولكن تناولنا لهذا العنصر سيتم من خلال النقاط الآتية:

(١) دلالة العطف:

- وحروف العطف من مظاهر ترابط النص وتماسكه، وقد لوحظ أن السورة الكريمة قد شاعت حروف العطف فيها؛ فمن خلال إحصاء حروف العطف الواردة في السورة الكريمة تبين الآتي:

- تكرر العطف بالواو في (٨٤) أربعة وثمانين موضعا، بينما جاء العطف بالفاء في (١٨) ثمانية عشر موضعا، وجاء العطف بـ (بل) في أربعة مواضع، وجاءت (أو) في موضعين اثنين، بينما جاء العطف بـ (ثم) في موضع واحد.

- ولعل غلبة العطف بالواو في السورة الكريمة راجع إلى أنها أم الباب، وأن العطف بالواو يتناغم مع الأسلوب السردي للأحداث، ويمكن الوقوف عند بعض الأمور

التي توقف عندها بعض المفسرين بخصوص حروف العطف، وهو مايمكن عرضه على النحو الآتي:

- دلالة العطف بالواو: ويمكن أن نلخص دلالة الواو كوحدة صوتية صرفية نحوية، فهي وحدة صوتية على اعتبار أنها تقوم على صوت واحد أو فونيم واحد، وهي وحدة صرفية على اعتبار ما تؤديه من دلالة الجمع أحيانا، ووحدة نحوية على اعتبار ما تؤديه من وظائف نحوية تركيبية كالعطف بين المفردات والجمل، وعطف القصة على القصة وما يعنينا في هذا المبحث هو اعتبارها وحدة نحوية من وحدات تماسك النص وترابطه، وكلام علماء المباني في هذا الصدد ملخصه أن الواو إما أن تكون عاطفة أوابتدائية وإذا جاءت عاطفة فإنها تدل على الجمع والتشريك، والمراد بالتشريك أنها تشرك المعطوفين في اللفظ والمعنى، وقد اختلف النحويون في إفادتها معنى الترتيب، فالبصريون يرون عدم إفادتها الترتيب والكوفيون على العكس منهم، وكونها ابتدائية أنها تكون لابتداء الكلام واستئنافه ومعنى ذلك: أن ما بعدها لا يرتبط بما قبلها لفظا ولا معنى.(١)

- ونأخذ بعض الأمثلة التي جاء العطف فيها بالواو، والتي منها ما جاء في قولـه: ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦ ﴾ فقد وردت الواو في الآيتين (١١) إحدى عشرة مرة، وتنوع العطف فيها بين المفردات والجمل، فقد جاءت عاطفة للمفردات في ثلاثة مواضع (المؤمنين والمؤمنات) و(المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) بينما جاءت في بقية المواضع عاطفة للجمل.

---

١) ينظر: رصف المباني (٤١٠ وما بعدها بصفحات)

- وقد ذهب بعض أهل التأويل إفادتها معنى الترتيب في ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ إذ نوه الرازي إلى ذلك بقوله: ((واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور، أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر، لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره..... ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه...))[1] وكلامه هذا مفاده أنها تفيد معنى الترتيب، ولا مشاحة في ذلك لأن حروف العطف تتقارض في معانيها، وهو ماسيظهر فيما بعد.

- أما عن عطف الجمل في الآيتين المذكورتين، فقد جاء العطف بالواو بين جملتي ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ مثيرا جدلا بين أهل التأويل، فقد ذهب ابن عطية إلى أن الواو تفيد ترتيبا لكن من جهة أخرى، يقول: ((وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها؛ لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة.))[2] واتفق معه أبو السعود ولكنه برر التقديم بقوله: ((وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس، للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.))[3] وعلى هذا فالواو هنا لمطلق الجمع لا للترتيب.

- وقد أضاف الرازي رأيا آخر إضافة إلى الرأي السابق قائلا: ((قال الله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال؟ نقول: الجواب عنه من وجهين[4]، أحدهما: الواو لا تقتضي الترتيب. الثاني: تكفير السيئات

---

١) مفاتيح الغيب (٨٤/٢٧)
٢) المحرر الوجيز (٦٦٨/٧)
٣) إرشاد العقل السليم (١٠٥/٧)
٤) ولكنه ذكر ثلاثة أوجه.

والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة، فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة. والثالث: وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهي في الجنة، وكان الإنسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات والمعنوية كالغضب والشهوة، وهو التكفير، وتثبت فيه الصفات الملكية، وهي أشرف أنواع الخلل.))(١) بينما توجه الألوسي توجها آخر انطلاقا من الدلالة المعجمية للكفر والذي يدل على معنى الستر قائلا: ((ويجوز عندي أن يكون التكفير في الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطي سيئاتهم ويسترها عنهم، فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلا، لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم.))(٢) وهكذا أسهمت الواو في ثراء المعنى فكل ما ذكره العلماء يحتمله النص الكريم.

- وإذا انتقلنا إلى العطف في قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ فالعطف بالواو قبل (غضب) على أصله، وكذلك الواو قبل (ساءت) أما ما قبل (لعن) و (أعد) فقد ذهب بعض أهل التأويل إلى أن الواو هنا تقارضت مع الفاء في المعنى، وقد بينوا علة هذا التقارض فقال أبو السعود: ((...﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ عطف على ما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا، والواو الأخيرين مع أن حقهما الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها، للإيذان باستقلال كل منهما في الوعيد وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض..))(٣)

- وقد اختلف بعض أهل التأويل في كنه الواو في قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ هل هي عاطفة أو استئنافية؟ وقد حكى الطبري هذين القولين مرجحا أحدهما على الآخر قائلا: ((.... عن الضحاك..... قال: هذا مثلهم في

---

١) مفاتيح الغيب (٨٣/٢٧)

٢) روح المعاني (٩٤/٢٥)

٣) إرشاد العقل السليم (١٠٥/٧) وينظر: روح المعاني (٩٥/٢٥)

التوراة، ومثل آخر في الإنجيل (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُۥ) وقال آخرون: هذان المثلان في التوراة والإنجيل مثلهم..... وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة غير مثلهم في الإنجيل، وأن الخبر عند مثلهم في التوراة تناهى عند قوله: (ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ) وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في التوراة والإنجيل واحد لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفا على قوله: (سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ) حتى يكون ذلك خبرا عن أن ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله: (كزرع) دليل بين على صحة ما قلنا، وأن قوله: (وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ) خبر مبتدأ عن صفتهم التي في الإنجيل دون ما في التوراة منها...))[1] وما يلفت النظر في هذا النص البديع هو البراعة في توظيف السياق اللغوي (الداخلي) في الترجيح بين الآراء.

- دلالة العطف بالفاء: والفاء تأتي على ثلاثة مواضع: الأول: تكون عاطفة في المفردات والجمل، وتفيد معنى الترتيب لفظا ومعنى، أو لفظا دون معنى، وتفيد معنى التعقيب، وقد يأتي مع الترتيب والتعقيب معنى السببية، وقد ذهب الكوفيون إلى أنها لا يلزم إفادتها معنى الترتيب، ويمكن أن يقال: إنها تدل أصلا على معنى الترتيب وقد لا تدل عليه أحيانا ويكون خروجا لها عن مقتضى أصلها ولا غرو في ذلك فالتقارض بين حروف العطف واقع. والثاني: أن تقع في جواب الشرط وحينئذ تكون ملازمة لمعنى السببية مع إفادتها العطف والترتيب. والثالث: أن تكون زائدة دخولها كخروجها.[2] وقد تنوعت دلالة الفاء في السورة الكريمة، ووفقا لما ذكره علماء المباني فإنها جاءت في كل المواضع دالة على الترتيب والتعقيب باعتبار هذين المعنيين ملازمين لها على الدوام حال

---

١) جامع البيان (٧١/١١ وما بعدها)

٢) ينظر: رصف المباني (٣٦٧ وما بعدها)

كونها عاطفة، وجاءت دالة على السببية إضافة إلى المعنيين الأصيلين في مواضع بعض جمل الشرط.

- ولكن هناك بعض المواضع استدعت وقوف بعض أهل التأويل عندها ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ فابن عاشور يرى أن الفاء في قوله: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) ليست للتعقيب معللا ذلك بقوله: ((...لأن علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم، فتعين أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام يقدر بعدها، والتقدير: فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضا الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم....))(١)

- ولكن الرازي رأى أن الفاء على أصلها في إفادة معنى التعقيب مبررا ذلك بقوله: ((والفاء للتعقيب، وعلم الله قبل الرضا، لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم، فكيف يفهم التعقيب في العلم؟ نقول: قوله: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) متعلق بقوله: (إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ) كما يقول القائل: فرحت أمس إذ كلمت زيدا فقام إلي.... فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبا كذلك....والفاء في قوله: (فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) للتعقيب الذي ذكرته.))(٢) والقول ما قال الرازي جريا للكلام على أصله وعدم تعارضه مع المعنى المراد.

- دلالة العطف بـ (بل): وهي تأتي في كلام العرب على نمطين، الأول: أن تكون حرف عطف مشركا ما بعده مع ما قبله في اللفظ لا المعنى، والثاني: أن تكون حرف

---

١) التحرير والتنوير (٢٥/١٧٥)

٢) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٩٥ وما بعدها)

ابتداء، وذلك إذا لم يقع تشريك بين ما بعدها وما قبلها، وهي في كلتا الحالتين تفيد معنى الإضراب. (١)

- وقد ورد العطف بـ (بل) في السورة الكريمة في أربعة مواضع كلها في سياق الحديث عن موقف الأعراب، وهو مناسب للحالة التي كانوا عليها من الاضطراب والقلق، ومن المواضع التي علق عليها الزمخشري ما ورد في قوله تعالى:﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ حيث قال: (فإن قلت: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ قلت: الأول إضراب معناه: رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني: إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعلم منه، وهو الجهل وقلة الفقه...))(٢)

- دلالة العطف بـ (أو): وهي تأتي عاطفة مفردا على مفرد أو جملة على جملة، وتدل على معان أبرزها: التخيير، والإباحة ولا يتحققان إلا بعد الطلب، وتأتي للشك والإبهام ولا يتحققان إلا بعد الخبر.(٣)

- وقد وردت (أو) في موضعين، الأول: في قوله: (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا) والثاني في قوله: (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ) لا خلاف بين أهل التأويل في أن (أو) في الموضع الأول تفيد معنى الإباحة، ولكن اختلفوا في الموضع الثاني: فبعضهم جعل (أو) عاطفة تفيد معنى التخيير، وبعضهم جعلها استئنافية، وعلى هذا تكون متقارضة مع الواو، يقول النحاس: ((قال الكسائي: (تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) على النسق، وقال أبو إسحاق: (أو

---

١) ينظر: رصف المباني (١٥٣ وما بعدها)

٢) الكشاف (٢٥٧/٣) وينظر: البحر المحيط (٤٩٠/٩)

٣) ينظر: رصف المباني (١٣١ وما بعدها)

يسلمون) مستأنف، والمعنى: أو هم يسلمون))[1] بينما قطع جمهرة المفسرين بأنها تفيد معنى التخيير، قال الزمخشري: ((..أَوۡ يُسۡلِمُونَ) معطوف على (تُقَٰتِلُونَهُمۡ) أي: يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما.....))[2] وقد احتج الألوسي لذلك بقراءة أبي وزيد بن علي (أو يسلموا) قائلا: ((.. (تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ) على معنى يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما، فـ (أو) للتنويع والحصر لا للشك وهو كثير، ويدل لذلك قراءة أبي وزيد بن علي (أو يسلموا) بحذف النون، لأن ذلك للناصب وهو يقتضي (أن) أو بمعنى (إلا) أي: إلا أن يسلموا، فيفيد الحصر، أو بمعنى (إلى) أي: إلى أن يسلموا، والغاية تقتضي أنه لا ينقطع القتال بغير الإسلام، فيفيده – أيضا –...))[3]

- دلالة العطف بـ (ثم): وقد اتفق النحويون على أنها عاطفة بين المفردات والجمل وأنها كالواو، إلا أن البصريين والكوفيين اختلفوا في دلالتها على الترتيب، فذهب الأولون إلى أن إفادتها الترتيب ملازمة لها لا تنفك عنها، في حين يرى الكوفيون غير ذلك، والراجح قول البصريين، لموافقته كلام العرب.[4] وقد وردت في السورة الكريمة في موضع واحد وهو قوله: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ ﴾ وقد بين ابن عاشور القيمة الدلالية للعطف بـ (ثم) في هذا الموضع قائلا: ((..و(ثم) للتراخي الرتبي، فإن عدم وجدان الولي والنصر أشد على المنهزم من انهزامه لأنه حين ينهزم قد يكون له أمل بأن يستنصر من ينجده، فيُكِر به على الذين هزموه، فإذا لم يجد وليا ولا نصيرا تحقق أنه غير منتصر...))[5]

(٢) من دلالة حروف الجر:

---

١) إعراب القرآن (١٩١/٣)

٢) الكشاف (٢٥٧/٣) وينظر: إرشاد العقل السليم (١٠٩/٧) ونظم الدرر (٢٠١/٧)

٣) روح المعاني (١٠٤/٢٥)

٤) رصف المباني (١٧٥ وما بعدها)

٥) التحرير والتنوير (١٨٢/٢٥)

- لا شك أن حروف الجر لها أثر واضح في تنوع دلالة الأفعال، ونضرب أمثلة على سبيل المثال لا الحصر من خلال السورة الكريمة موضوع الدراسة على النحو الآتي:

- فجملة: (سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) فيها ملمح ألمح إليه ابن عاشور، إذ يقول: ((وعدى فعل (ستدعون) بحرف إلى، لإفادة أنها مضمنة معنى المشي وهذا فرق دقيق بين تعدية فعل الدعوة بحرف (إلى) وبين تعديته بـ (اللام)..))(١)

- ويكشف الألوسي عن سر تعدية (رضي) بحرف الجر (عن) دون (الباء) في جملة (لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) – قائلا: ((والرضا يقابل السخط، وقد يستعمل بـ(عن) و (الباء) ويعدى بنفسه، وهو مع (عن) إنما يدخل على العين لا المعنى، ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا، وما في الآية من هذا القسم، والمعنى الموجب الرضا فيها هو المبايعة....))(٢)

- و في قو له: (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مِن. مَكَّةَ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) يقول ابن عاشور: ((فعدى (أظفركم) بـ (على) لتضمينه معنى (أيدكم) وإلا فحقه أن يعدى بالباء...))(٣)

- ومن المعلوم أيضا أن حروف الجر تختلف دلالاتها وفقا لموقعها في التركيب وما يحدده ا لسياق، ونعرض أنموذ جا وا حدا يعكس هذه الرؤية من خلال ا لسورة الكريمة، فحرف الجر (مِن) الوارد في قوله: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) حيث قال النحاس: ((يجوز أن تكون (من) ههنا لبيان الجنس... ويجوز أن تكون للتبعيض، أي: وعد الله الذين ثبتوا على الإيمان منهم مغفرة وأجرا عظيما....))(٤) في حين رجح كونها للجنس في كتاب آخر، إذ يقول: ((تكون (منهم)

---

١) السابق (٢٥/١٧١)

٢) روح المعاني (٢٥/١٠٧)

٣) التحرير والتنوير (٢٥/١٨٦)

٤) معاني القرآن (٦/٥١٨) وينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٢٩٥)

لبيان الجنس أولى؛ لأنها إذا جعلت للتبعيض –كان معنى آمنوا ثبتوا؛ وذلك مجاز، ولا يحمل الشيء على المجاز، ومعناه: صحيح على الحقيقة...))(١) وقد قال بالأول ابن عطية معللا لذلك بقوله: ((... هي لبيان الجنس وليست للتبعيض؛ لأنه وعد مُرَج للجميع.))(٢)

ثانيا: من دلالة الإحالة في السورة الكريمة:

- وتتحقق هذه الإحالة بأكثر من وسيلة، منها: الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وهذه العناصر من أهم ما يساعد على ترابط النص وتماسكه.

- يكنى بالضمير عن الاسم الظاهر، ومن ثم كان الربط بالضمير بديلا لإعادة الذكر أيسر في الاستعمال وأدعى إلى الخفة والاختصار؛ بل إن الضمير إذا اتصل فلربما أضاف إلى الخفة والاختصار عنصرا ثالثا هو الاقتصار، وهذه العناصر الثلاثة من مطالب الاستعمال اللغوي.(٣) والضمير في ذاته كلمة مجهولة الهوية، تثير في ذهن المستقبل الرغبة في تذكر ما سبقها في النص؛ ليقوم بسد الفراغ الدلالي الذي تحدثه هذه الكلمة المجهولة وهو ما يعرف بعود الضمير؛ فلابد للضمير من عائد يتعلق به وهو يعود عليه؛ وبذلك يجد مستقبل النص نفسه يتحرك داخل النص للأمام وللخلف؛ ليربط الضمير بما يعود عليه، ومن ثم يتحقق الربط بين عناصر النص ووحداته.(٤) وكذلك الحال في أسماء الإشارة والأسماء الموصولة؛ فهي أدوات تحث السامع أو القارئ بل وتجبرهما على البحث عن معناها داخل النص.

- والضمائر بشتى أنواعها شائعة في السورة الكريمة؛ حيث بلغت نسبة ورودها في السورة الكريمة ما يقرب من (١٥٤) مائة وأربع وخمسين مرة، ولكن ضمائر الغيبة تعدت (٩٠) التسعين مرة، بينما جاءت ضمائر الخطاب (٣٣) ثلاثا وثلاثين مرة، وضمائر

---

١) إعراب القرآن (١٩٧/٣)

٢) المحرر الوجيز (٦٩٣/٧) وينظر: مفاتيح الغيب (١٠٩/٢٧)

٣) البيان في روائع القرآن (١٣٧/١) بتصرف

٤) دور نحو الجملة في تفسير النص منهج وتطبيق (٢٥٨) بحث منشور في كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية –كلية دار العلوم جامعة القاهرة للدكتورة/ليلى يوسف حميد

التكلم بلغت (١٤) أربع عشرة مرة، وجاء من الأسماء الموصولة (ما) جاءت ثلاث مرات، و(الذي) ثلاث مرات، و(التي) مرة واحدة، و(الذين) ست مرات. وجاء من أسماء الإشارة (هذه) مرة واحدة، و(ذلك) خمس مرات.

- ويمكن الاقتصار على نماذج من ذلك على النحو الآتي:

(١) ففي الآيات الأربع الأولى نلاحظ تكرر ضمير الخطاب الموجه للرسول –صلى الله عليه وسلم – ويكشف أبو حيان عن هذه الدلالة بقوله: ((واشتركت الخمسة في الخطاب له – صلى الله عليه وسلم – تأنيسا له وتعظيما لشأنه، ولم يأت بالاسم الظاهر، لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر.))(١)

(٢) ثم التنويع الذي بدا في مطلع السورة أيضا حيث عبر بضمير (نا) الدالة على العظمة في (إِنَّا فَتَحْنَا) ثم العدول عنه إلى ضمير الغيبة في قوله(لِّيَغْفِرَ)وقدكشف الرازي عن تلك الدلالة بقوله: ((وههنا مسألة أخرى، وهو أن الله تعالى قال: (إنا فتحنا)ثم قال: (ليغفر لك الله) ولم يقل: إنا فتحنا لنغفر لك، تعظيما لأمر الفتح، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة، لكنها عامة، لقوله: (إن الله يغفر الذنوب جميعا) .... ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة في حق النبي – صلى الله عليه وسلم – العصمة، فذلك لم يختص بنبينا بل غيره من الرسل كان معصوما، وإتمام النعمة كذلك، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)... وكذلك الهداية قال الله تعالى: (يهدي إليه من يشاء) فعمم، كذلك النصر، قال الله تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون) وأما الفتح، فلم يكن لأحد غير النبي – صلى الله عليه وسلم –فعظمه بقوله: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) وفيه التعظيم من وجهين: أحدهما: (إنا). وثانيهما: (لك) أي: لأجلك على وجه المنة.))(٢)

---

١) البحر المحيط (٤٨٤/٩)

٢) مفاتيح الغيب (٧٩،٨٠/٢٧)

(٣) وثمة جدل دار بين أهل التأويل في عود الضمائر في قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٩﴾ فما يفهم من كلام الطبري أن الضميرين في (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) يعودان على الرسول، والضمير في (تُسَبِّحُوه) يعود على الله(١) وعليه فهو يرى تنويع عود الضمائر، في حين رأى غيره عودة الضمائر الثلاثة إلى الله تعالى ومنهم الزمخشري، وقد علق قائلا: ((والضمائر لله عز وجل.... ومن فرق الضمائر فقد أبعد.))(٢) وقد علق ابن عطية على الرأيين قائلا: ((وقال بعض المتأولين: الضمائر في قوله تعالى: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ) هي كلها لله تعالى، وقال الجمهور: (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) هما للنبي – صلى الله عليه وسلم – و(تُسَبِّحُوه) هي لله تعالى....))(٣) وذكر الرازي الرأيين مرجحا عود الضمائر كلها لله تعالى.(٤) وهو أيضا ما أيده ابن عاشور مدللا على ذلك بقوله: ((وضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة لأن إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أن المراد أحدهما، والقرينة على تعيين المراد ذكر (تُسَبِّحُوه) ولأن عطف ورسوله على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول –صلى الله عليه وسلم – إيمان بالله، فالمقصود هو الإيمان بالله....))(٥) بينما رأى الخطيب تنويع عود الضمائر معللا لذلك بقوله: ((على أننا نخالف هذا الرأي، ونرى – والله أعلم – أن الضمائر بعضها عائد إلى الله –سبحانه وتعلى – وبعضها عائد إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فالتعزير للرسول، وهو في الوقت نفسه تعزير لله، ونصر لرسول الله وتأييد لدينه، ولكن إضافة هذا التعزير للرسول تكريم له؛ لأنه القائم على دين الله، وحامل راية الجهاد في سبيل الله ويشهد لهذا قوله تعالى:﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

---

١) جامع البيان (٤٧/١١)
٢) الكشاف (٢٥٤/٣)
٣) المحرر الوجيز (٦٧١/٧)
٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٧٦/٢٧)
٥) التحرير والتنوير (١٥٦/٢٥)

وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فالضمائر هنا كلها عائدة إلى الرسول الكريم من غير شك، والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا وأما التوقير فهو لله وللرسول، وأما التسبيح بكرة وأصيلا فهو خالص لله وحده.))(١) وهذا هو الرأي الأقرب لأنه يمثل وجهة نظر جمهرة المفسرين كما صرح بذلك ابن عطية، ولأنه مؤيد بنص آخر من القرآن.

(٤) كما كانت الإشارة في قوله: (فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ) مختلف في إحالتها، فقد رأى الألوسي أنها إشارة إلى مغانم خيبر.(٢) في حين قال أبو حيان: ((الإشارة بهذه إلى البيعة والتخلص من أمر قريش بالصلح، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه. وقال مجاهد: مغانم خيبر.))(٣) والرأيان محتملان ولا تعارض بينهما، فقد عجل الله لرسوله بالصلح المرشح للفتح، وعجل له فتح خيبر.

- ثالثا: من دلالة الوصف في السورة الكريمة:

- تعددت الأوصاف في السورة الكريمة، وتعددت في أشكالها بين وصف بالمفرد ووصف بالجملة، ويمكن الاكتفاء بذكر نماذج من هذين الشكلين:

- من دلالة الوصف بالمفرد: نجد وصف الفتح في الآية الأولى بـ (مبينا) له دلالته إذ كان يمكن الاقتصار على (فتحا) ولكن قيمة هذا الوصف تتضح في مناغمتها السياق الخارجي، المتمثل في الحالة التي كان عليها كثير من صحابة رسول الله بعد إبرام صلح الحديبية مع مشركي مكة، وهي حالة عدم وضوح الحكمة من هذا الصلح الذي سماه الله فتحا، ومن ثم جاء الوصف (مبينا) ليمحو هذا التردد ويزيل عدم الوضوح.

- وكذلك وصف النصر بـ (عزيزا) وصف له قيمته الدلالية، ويظهر ذلك من خلال التفريق بين النصر العزيز وغيره، وقد وضح هذا الفرق ابن عطية، حيث قال:((والنصر

---

١) التفسير القرآني للقرآن (٤٠٥/٧)

٢) روح المعاني (١٠٩/٢٥)

٣) البحر المحيط (٤٩٣/٩)

العزيز هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز هو الذي مُضَمَّنه الحملة ودفع العدو فقط.))[1] و قال القرطبي: ((غالبا منيعا لا يتبعه ذل))[2] و قال الآلوسي: ((والمعنى: ينصرك الله نصرا يقل وجوده ويصعب مثاله))[3] وكلها معان تتناغم مع الحدث، ففتح مكة كانت فيه الغلبة والظهور على العدو، وهو نصر أعقبه عز لا ذل وهو نصر قل وجوده وصعب مثاله.

- وكذلك إجراء وصف الإيمان على الرجال والنساء في قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ له دلالته التي يكشف عنها ابن عاشور بقوله: ((وإجراء الوصف على الرجال والنساء بالإيمان يشير إلى أن وجودهم المانع من حصول مضمون الجواب هو الوجود الموصوف بالإيمان أصحابه، ولكن الامتناع ليس معلقا على وجود الإيمان بل على وجود ذوات المؤمنين والمؤمنات بينهم..))[4]

- من دلالة الوصف بالجملة: وقد برزت هذه الدلالة في غير موضع من مواضع السورة الكريمة، فعلى سبيل المثال وصفت المغانم بجملتين في موضعين متتاليين، يتمثلان في قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ فقد وصفت المغانم الأولى بجملة (يأخذونها) والثانية بجملة (تأخذونها) وهذا الوصف له دلالته التي أبرزها ابن عاشور بقوله: ((وفائدة وصف المغانم بجملة (يأخذونها) تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريبا، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية

---

١) المحرر الوجيز (٦٦٧/٧)
٢) الجامع (٢٦٣/١٥)
٣) روح المعاني (٩٢/٢٥)
٤) التحرير والتنوير (١٨٩/٢٥)

هذا الفتح...))[1] وقال – في الموضع الثاني –: ((ووصف المغانم بجملة (تأخذونها) التحقيق الوعد.))[2]

- رابعا: من دلالة التذييل في السورة الكريمة:

- تذييل آيات السورة الكريمة من العناصر التي يجب الوقوف عندها، لأن مطلع السورة يتضمن مقصودها الأعظم، فالسورة استهلت بالفتح، وكل ما ما جاء من أحداث يحمل هذا المعنى العظيم، ومطلع كل آية بمثابة باب مفتوح وتذييل كل آية بمثابة غلق لهذا الباب، وهذا لا يعني انفصاما بين الآية وما قبلها وما بعدها، وإنما يعني إحكام التواصل بين غرف البيت الواحد الذي له باب رئيس يمثل مطلع السورة، وتواصل جميع عناصر البيت ونواحيه من الداخل.

- ولإبراز القيمة الدلالية لتذييل آيات السورة الكريمة، يمكن أن نقف عند أنموذجين، يتضح من خلالهما مدى اهتمام أهل التأويل بهذا الجانب.

- الأول: ما عقده أهل التأويل من مقارنة بين تذييل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾ فقد قال ابن عطية: ((وقال تعالى في هذا: (عَلِيمًا حَكِيمًا) فذكر صفة العزة من حيث تقديم الانتقام من الكفار، وفي التي قبل قرن بالحكمة والعلم من حيث وعد بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة، ومنها نقمته من المنافقين والمشركين؛ فلكل لفظ وجهه من المعنى.))[3] وقال الكرماني: ((قوله – عز وجل –: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ ﴾ وبعده (عَزِيزًا حَكِيمًا) لأن الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد إيمان

---

١) التحرير والتنوير (٢٥/١٧٦)

٢) السابق (٢٥/١٧٧)

٣) المحرر الوجيز (٧/٦٧٠)

المؤمنين، فكان الموضع موضع علم وحكمة.....وأما الثاني الذي بعده، فمتصل بالعذاب والغضب...فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة.))(١) وقد كان اهتمام الزمخشري بالموضع الأول فأضاف إلى ما قيل ((أثبت العلم إشارة إلى أنه ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وأيضا لما ذكر أمر القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى، وقوله (حكيما) بعد قوله: (عليما) إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئا متقنا ويعلمه، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقا لا يقال له: حكيم، ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له: حكيم...))(٢) وكل ما ذكره العلماء يتعاضد في إظهار إحكام النص القرآني البديع.

- الثاني: التذييل في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤﴾ قال ابن عاشور: ((والتذييل بكونه تعالى (غفورا) صيغة المبالغة، وضم (رحيما) إليه الدال على المبالغة دون التنييل بمايفيد كونه سبحانه معذبا، مما يدل على سبق الرحمة ما فيه...))(٣)

- وكذلك لو تتبعنا تذييل كل آية من آيات السورة الكريمة لشعت منه أنوار دلالية وإشراقات ومنح إلهية، ولولا خشية الإطالة لحاول العبد المسكين.

- خامسا: من دلالة الترتيب والتركيب في السورة الكريمة:

- اهتم أسلافنا الأولون بما لترتيب الكلمات داخل الجملة والجمل داخل النص من أثر واضح في الدلالة؛ إذ يقول الجرجاني –معلقا على أبيات للبحتري –: ((فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر، وعرف ونكر، وحذف وأضمر، وعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فأصاب في

---

١) أسرار التكرار في القرآن (١٩٤)

٢) الكشاف (٨١/٣)

٣) التحرير والتنوير (١٠٠/٢٥)

ذلك كله...))[1] ويزيد الرماني هذه الرؤية وضوحا عندما يقول –موضحا مفهوم الفصاحة –: ((...لا تظهر في إفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له دخل فيه، وقد تكون بالموقع....ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها...))[2] لعل هذين النصين من نصوص عديدة متناثرة في تضاعيف كتب تراثنا فيهما كفاية للكشف عن القيمة الدلالية للترتيب بكل أشكاله وأنماطه سواء أكان على مستوى الكلمات أو الجمل، ونحاول تطبيق هذا العنصر من خلال النماذج الآتية:

- تأمل دلالة موقع الجملة بين الجمل من خلال النموذج الآتي: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

- وكان اهتمام بعض المفسرين بموقع الجملة المكررة في هذا النص ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث قال الرازي: ((ذكر جنود السماوات والأرض قبل إدخال

---

١) دلائل الإعجاز (٦٧ وما بعدها)

٢) النكت في إعجاز القرآن (١٠٧) والكلام في كتب العلماء لا سيما البلاغيين في هذا الصدد كثير كله ثراء وفائدة.

المؤمنين الجنة، وذكر ههنا تعذيب الكفار وإعداد جهنم، نقول: فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة، فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة، ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾... ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله: ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود، فالجنود في الرحمة أولا ينزلون ويقربون آخرا. وأما في الكافر، فبغضب عليه أولا فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة، وهي جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب، وهم جنود الله كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ ولذلك ذكر جنود الرحمة أولا والقربة بقوله: ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ آخرا، وقال ههنا: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ وهو الإبعاد أولا وجنود السماوات والأرض آخرا.))(١)

- ثم تأمل دلالة الترقي الناتجة عن التفكير الخالي من الغيرة والنخوة في قوله تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ) يقول الألوسي: ((ولعل ذكر الأهل بعد الأموال من باب الترقي، لأن حفظ الأهل عند ذوي الغيرة أهم من حفظ الأموال.))(٢) ويؤيده ما ظهر منهم بعد علمهم بأن رسول الله وأصحابه سيحوزون مغانم خيبر فقالوا: (إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)

- وفي قوله تعالى: (لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ) لطائف ونفحات أشار إليها الرازي حيث قال: ((اقتصر منها على الأصناف الثلاثة، لأن العذر إما أن يكون بإخلال في عضو أو باختلال في القوة، والذي بسبب إخلال العضو، فإما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول إلى العدو والانتقال في مواضع القتال، أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول والأول هو الرجل، والثاني هو العين؛ لأن بالرجل يحصل الانتقال، وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب

---

١) مفاتيح الغيب (٨٥/٢٧)

٢) روح المعاني (٩٨/٢٥)

والهرب... قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة، لأن الآفة في القوة تزول وتطرأ والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول، فإن الأعمى لا يعود بصيرا، فالعذر في محل الآلة أتم ـ قدم الأعمى على الأعرج، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكبا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره..))[1] وكلام الشيخ غني عن التعليق أو التوضيح والتفصيل.

- وقد عقد الرازي مقارنة دلالية في قوله تعالى:﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ حيث قال:((وفيه لطائف معنوية ولفظية: الأولى: هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فأشار إلى ثلاثة أشياء، أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم، فقال: (إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) وجعل ما للمؤمنين بجعل الله، فقال: (فَأَنزَلَ ٱللَّهُ) وبين الفاعلين ما لا يخفى. ثانيها: جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره. ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه، حيث قال: (حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ) وقال: (سَكِينَتَهُۥ) وبين الإضافتين ما لا يذكر. الثانية: زاد المؤمنين خيرا بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة، والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ)...وأما اللفظية فثلاث لطائف. الأولى: قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته، إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها. الثانية: قال الحمية ثم أضافها بقوله: (حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ) لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد

---

١) مفاتيح الغيب (٢٧/٩٤)

قبحا، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية. وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن مالايقى معه لحسن اعتبار، فقال: (سَكِينَتَهُۥ) اكتفاء بحسن الإضافة. الثالثة: قوله (فأنزل) بالفاء لا بالواو، إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة، تقول: أكرمني فأكرمته، للمجازاة والمقابلة ولو قلت: أكرمني وأكرمته لا ينبئ عن ذلك....))(١)

- ثم هناك دلالات تتفرع عن دلالة الترتيب العامة يمكن جمعها تحت العناصر الآتية:

- من دلالة التقديم في السورة الكريمة:

- وهذا ملمح ظاهر في السورة الكريمة على مستوى الجملة الاسمية والفعلية ويمكن توضيح ذلك من خلال النماذج الآتية:

- قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في موضعين، وقوله: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ

- فقد تقدم الجار والمجرور (لك) في الجملة الأولى على المفعول المطلق، وقد بين الآلوسي سر هذا التقديم بقوله: ((وتقديم (لك) على المفعول المطلق، أعني قوله: (فَتْحًا مُّبِينًا) مع أن الأصل تقديمه على سائر المفاعيل، كما صرح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه –عليه الصلاة والسلام– وقيل: لأنه مدار الفائدة.))(٢)

- وقد تقدم المسند على المسند إليه في المواضع المتبقية والتقديم في جميعها لإفادة الحصر، وقد قال ابن عاشور – في الموضع الأخير –: ((وتقديم المسند على المسند إليه في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لإفادة الحصر، وهو حصر ادعائي، إذ لا اعتداد

---

١) مفاتيح الغيب (١٠٢/٢٧)

٢) روح المعاني (٨٩/٢٥)

بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود، لغلبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه.))(١)

- وفي قوله: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) قال ابن عاشور: ((وقدمت المغفرة هنا بقوله: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم، فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.))(٢) فتقديم المغفرة للترغيب، فرحمة الله سابقة على عذابه

- و في جملة (بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا) وجملة (وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا) تقدم الجار والمجرور (بما تعملون) على متعلقه، لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا.(٣)

- وغير ذلك من المواضع التي تمت معالجتها في تناولنا لدلالة العطف بالواو.

- من دلالة الإظهار والإضمار في السورة الكريمة:

- أحيانا يعبر بالظاهر دون المضمر والعكس، ولهذا النمط التركيبي أثره في الدلالة، وقد أشار علماء التأويل إلى بعض من ذلك، ويمكن ذكر بعض النماذج على النحو الآتي:

- جاء الفاعل ضميرا ظاهرا في (فتحنا) بينما جاء مضمرا في (تقدم –تأخر–يتم –يهديك) وجاء اسما ظاهرا (لفظ الجلالة) في (يغفر –ينصرك) والفاعل في كل هذه الأفعال هو (الله) وقد بين الرازي سر ذلك التنوع بقوله: ((أما المسألة المعنوية: وهي أن الله تعالى لما قال: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أبرز الفاعل وهو (الله) ثم عطف عليه بقوله: (ويتم) وبقوله: (ويهديك) ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل الأول ولا يظهر فيما بعده.... اختصارا للكلام بالاقتصار على الأول، ههنا لم يقل وينصرك نصرا، بل أعاد لفظ الله، فنقول: هذا إرشاد إلى طريق النصر، ولهذا قلما ذكر الله من غير إضافة... فلما قال

---

١) التحرير والتنوير(٢٥/١٥١)

٢) السابق (٢٥/١٦٦)

٣) السابق (٢٥/١٦٤) بتصرف

ههنا: (وينصرك الله) أظهر لفظ الله ذكرا للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب وبه يحصل الصبر، وبه يتحقق النصر...))(١) وقد علل الآلوسي لذلك أيضا بقوله:((يمكن ن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة؛ إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته، وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير؛ لأن ما يصدر عنهم في الأكثر باستخدام توابعهم، ولا يعترض بأن النصر كالفتح وقد أسند إلى الاسم الجليل لما لا يخفى عليك..... (وينصرك الله) إظهار الاسم الجليل مع النصر قيل: لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولإظهار كمال العناية بشأنه..... وقال الصدر: أظهر الاسم في الصدر وهنا؛ لأن المغفرة تتعلق بالآخرة، والنصر يتعلق بالدنيا؛ فكأنه أشير بإسناد المغفرة والنصر إلى صريح اسمه تعالى إلى أن الله –عزوجل– هو الذي يتولى أمرك في الدنيا والآخرة....))(٢) وقد علل ابن عاشور إظهار اسم الله في المغفرة والنصر؛ قصدا للتنويه بهذه المغفرة وهذا النصر؛ لأن الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه.(٣) والعلل التي ذكرها العلماء مقبولة تتعاضد ولا تتناقض.

- وهناك ملمح ألمح إليه ابن عاشور يتعلق بقوله: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ حيث قال: ((وإظهار لفظ الكافرين في مقام أن يقال: أعتدنا لهم سعيرا، لزيادة تقرير معنى: (وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)...))(٤)

- و في جملة ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ ملمح نوه إليه ابن عاشور بقوله: ((وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه

---

١) السابق (٧٩/٢٧)

٢) روح المعاني (٩١/٢٥)

٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٤٧/٢٥، ١٤٩)

٤) السابق (١٦٥/٢٥)

للاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو ان الكفر هوسبب تولية الأدبار في قتالهم للمسلمين....))(١)

- من دلالة التكرار في السورة الكريمة:

- تكررت جملة ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ مرتين في موضعين متقاربين في السورة الكريمة، وقد بين غير واحد من المفسرين علة التكرار، فقد قال الرازي: ((ما الفائدة في الإعادة؟ نقول: لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله إنزالهم قديكون للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولا لبيان الرحمة بالمؤمنين.... وثانيا: لبيان إنزال العذاب على الكافرين...))(٢) وعلى هذا تكون الجملة الأولى في سياق الوعد والثانية في سياق الوعيد، في حين رأى القرطبي أن الجملتين في سياق الوعد والتهديد، فقال: ((وأعاد، لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين، والمراد في الوضعين التخويف والتهديد، فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.))(٣) ولكن أبا السعود يرى ما رآه الرازي، محتجا بتذييل الجملة الثانية بوصف العزة، فقال: ((.. فائدتها: التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب، وأن المراد ههنا: جنود العذاب، كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة.))(٤)

- هذا ما حاولت استنباطه واستنتاجه من كتب أسلافنا، مما له صلة بالدلالة النحوية التركيبية، ولا أزعم أن نفحات الله تقف عند هذا الحد، وإنما القرآن معطاء على درجة الإخلاص، ولا أدعي تمام الإخلاص ولكن حسبي أني بذلت وسعي واجتهدت طاقتي.

---

١) التحرير والتنوير (١٨١/٢٥)

٢) مفاتيح الغيب (٨٤/٢٧ ومابعده)

٣) الجامع (٢٦٦/١٥)

٤) إرشاد العقل السليم (١٠٦/٧)

من نتائج الدراسة

- اشتملت السورة الكريمة على أكثر من مائة جملة، منها (٢١) إحدى وعشرون جملة اسمية، والبقية جمل فعلية، وغلبة الجمل الفعلية تتناغم مع ما قامت عليه السورة الكريمة من سرد الأحداث.

- وقد تنوعت الدلالات الناجمة عن البنية النحوية التركيبية في السورة الكريمة، وهو ما يمكن سرده على النحو الآتي:

(١) الدلالات الناجمة عن الجمل الاسمية في السورة:

(أ) دلالة الثبوت والدوام، وقد تلاحظ أن الجمل الاسمية قد وردت في سياقات تحتم تحقق هذه الدلالة.

(ب) دلالة التوكيد: وقد برزت في أربع جمل، كلها مؤكدة بالحرف الناسخ (إن) وقد تنوع الغرض من التوكيد في هذه المواضع بين: الاهتمام، والتعريض، والتهديد والوعيد.

(ت) دلالة التقديم: وقد تنوع الغرض من التقديم بين: إفادة الحصر، والاهتمام والاعتناء.

(ث) دلالة التكرار: وقد ظهرت في تكرار جملة (ولله جنود السماوات والأرض) وكان الغرض من التكرار تنوع السياق؛ فالأولى: جاءت في سياق الوعد، والثانية وردت في سياق الوعيد.

(ج) دلالة النفي: ولم ترد إلا في موضعين، وقد جاءت بـ (لا) العاملة عمل ليس، والنفي بها خاص لا عام.

(٢) الدلالات الناجمة عن الجمل الفعلية في السورة:

(أ) دلالة الطلب: وقد بدت في الجمل الطلبية المبدوءة بفعل الأمر وجملتها خمس جمل لم ترد إلا في سياق الحديث عن موقف الأعراب، وقد تنوعت دلالة الطلب بين الحقيقة والمجاز؛ فالأمر الصادر عن الله على حقيقته، بينما الأوامر الصادرة عن الأعراب فيها انكسار وذلة.

(ب) دلالة التعليل: وقد وردت الجمل التي تفيد معنى التعليل سبع عشرة مرة منها ستة عشر جملة في سياق الوعد والبشارة، ولعل ذلك راجع إلى أن أسلوب التعليل من الأساليب التي تحقق اليقين بموعود الله، كما أنه وسيلة لجذب أولي الألباب إلى الحرص على الإقبال على عطاءات الله بمرادات الله.

(ت) دلالة الشرط: وقد وردت الجمل الشرطية ثماني مرات في السورة موزعة بين سياقي الوعد والوعيد، وأسلوب الشرط من الأساليب المحفزة في سياق الوعد؛ للترغيب، ومن الأساليب المرهبة في سياق الوعيد والتهديد؛ لأنه قائم على فعل وجواب، فالفعل بمثابة تقديم الشيء والجواب بمثابة الثمن لتقديمه.

(ث) دلالة الإثبات: وقد غلبت على الجمل الفعلية في السورة الكريمة، وهو يتناسب مع ما قامت عليه السورة من تقرير أحداث وإثباتها.

(ج) دلالة النفي: وقد تنوعت أدوات النفي المستعملة في الجمل الفعلية المنفية في السورة على النحو الآتي:

- النفي بـ (ليس) وقد جاء في موضع واحد، والنفي بها نفي للحال.
- النفي بـ (لن) وقد جاء في موضعين، والنفي بها نفي للمستقبل وكذلك النفي بـ (لا) المختصة بالدخول على الأفعال، وقد جاء النفي بها في ثلاثة مواضع، وقد كان للسياق أثر في تغيير دلالة النفي بـ (لا) في موضع (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) فالنفي بها نفي للماضي بقرينة (كانوا).
- النفي بـ (لم) وقد جاء في ثلاثة مواضع، والنفي بها نفي للماضي.

(ح) دلالة التوكيد: فقد جاء الفعل الماضي مؤكدا بـ (قد) في مواضع ثلاثة، منها موضعان سُبِقَت (قد) فيهما بلام القسم التي تفيد التوكيد أيضا، وكلها جاءت في سياق الوعد.

(خ) دلالة التقديم: وقد تنوع الغرض من التقديم في بعض الجمل الفعلية بين الترغيب والاهتمام.

(٣) الدلالات الناجمة عن الأدوات في السورة الكريمة:

(أ) دلالة العطف: وقد ورد من أدوات العطف في السورة الكريمة: (الواو) وقد وردت ثمانيا وأربعين مرة، و (الفاء) وقد وردت ثماني عشرة مرة، و(بل) في أربعة مواضع و(أو) في موضعين، و(ثم) في موضع واحد.

- وكثرة العطف بالواو يتناسب مع الأسلوب السردي للأحداث وهو ما قامت عليه السورة الكريمة.

- كما أن العطف بالواو أفاد الترتيب في مواضع من السورة على خلاف بين المفسرين، كما أنها تقارضت مع (الفاء) في مواضع أخرى، كما أنها جاءت عاطفة في مواضع واستئنافية في مواضع أخرى.

- أما الفاء، فقد جاءت دالة على التعقيب والترتيب والسببية في كل المواضع ولم يختلف العلماء في دلالتها إلا في موضع واحد.

- أما دلالة العطف بـ (بل) فقد جاءت في المواضع الأربعة دالة على الإضراب.

- وجاءت (أو) دالة على معنى الإباحة في الموضع الأول، واختلف المفسرون في الموضع الثاني بين دلالتها على التخيير، أو اعتبارها استئنافية بيانية.

- بينما جاءت (ثم) في موضع واحد دالة على التراخي الرتبي.

(ب) دلالة حروف الجر: وقد توقفت الدراسة عند المواضع التي أثارت خلافا بين أهل التأويل، كما أنها ركزت على الأثر الدلالي الناتج عن تعدية الفعل بحرف دون آخر.

(٤) الدلالات الناجمة عن التراكيب:

(أ) دلالة الإحالة: وتتحقق من خلال الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة وقد تلاحظ شيوع الضمائر لا سيما الدالة على الغيبة في السورة الكريمة وهو ما يعكس ترابط النص وتماسكه، وقد تعرضت الدراسة لبعض المواضع التي اختلف أهل التأويل في الإحالة فيها.

(ب) دلالة الوصف: وقد تكرر الوصف في السورة الكريمة بين وصف بالمفرد ووصف بالجملة، وقد تعرضت الدراسة لبعض النماذج من هذا القبيل.

(ت) دلالة التذييل: حيث حاولت الدراسة الكشف عن القيمة الدلالية لتذييل بعض آيات السورة الكريمة.

(ث) دلالة الترتيب التركيبي، وقد توقفت الدراسة عند بعض المواضع التي تعكس موقع الجملة بين الجمل.

- وبعد: فالله أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه، فإن كان فيه من توفيق فمن الله، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان، وحسبي أني بذلت الوسع واجتهدت الطاقة. والله من وراء القصد.

* * *

من المصادر والمراجع

- *القرآن العظيم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، الناشر/دار المصحف بالقاهرة.
- أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجاني تصحيح السيد/محمد رشيد رضا، ط.دار المعرفة بيروت ١٩٧٨م.
- أسرار التكرار في القرآن، لتاج القراء محمود بن حمزه الكرماني تحقيق/عبدالقادر أحمد عطا، ط.دار الاعتصام –الثالثة ١٩٧٨م.
- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق/د.زهير غازي زاهد مطبعة العاني –بغداد.
- أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك لابن هشام الأنصاري تحقيق الشيخ/محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ١٩٩٤م.
- إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور طبعة الدار التونسية سنة ١٩٨٤م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج –لوهبة بن مصطفى الزحيلي.ط.دار الفكر المعاصر بدمشق. الثانية ١٤١٨هـ.
- التفسير القرآني للقرآن للشيخ/عبد الكريم الخطيب ط.دار الفكر العربي –بيروت.
- التفسير الكبير، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الرازي الشافعي –طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الأولى ١٩٨١م
- جامع البيان في تفسير القرآن لشيخ/أبي جعفر محمد بن جرير الطبري طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت –لبنان.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي عناية وتصحيح/الشيخ: همام سمير البخاري ط.دار عالم الكتب ٢٠٠٣م.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق/محمد علي النجار –طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة –القاهرة ٢٠٠٦
- دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني تحقيق/محمود محمد شاكر، ط.مكتبة الخانجي –القاهره ١٩٢٠م.
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د/عبدالفتاح عبدالعليم البركاوي، نشر المؤلف.

- دور النحو الجملة في تفسير النص منهج وتطبيق د/ليلى يوسف حميد، بحث منشور في كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني للإمام أحمد بن عبدالنور المالقي تحقيق/أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي ط.دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان
- عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك للشيخ/محمد محيي الدين عبدالحميد، ط.المكتبة العصرية ١٩٩٤م.
- القطع والائتناف لأبي جعفر النحاس تحقيق/أحمد فريد المزيدي، ط.دار الكتب العلمية – الأولى ٢٠٠٢م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام/ جار الله الزمخشري، تحقيق/أبوعبدالله آل زهوي ط.دار الكتاب العربي – بيروت.لبنان
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن عطيه الأندلسي، مطبوعات: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر. الثانية ٢٠٠٧م
- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط.عالم الكتب – بيروت.
- معاني القرآن الكريم للإمام أبي جعفر النحاس تحقيق/الشيخ محمد علي الصابوني ط.جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية
- المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل لأبي عمرو الداني تحقيق الدكتور/يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ط.مؤسسة الرسالة.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي. طبعة دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) الأولى سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
- النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق/خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف – القاهره ١٩٧٦م.

* * *